سيرة عنترة (ملحمة شعبية عالمية)

بقلم
الدكتور عبد الحميد يونس

تعد « سيرة عنترة »العربية الشعبية بحق من روائع الملاحم العالمية ، فما من مصنف ينتظم هذه الروائع ، يخلو من عرض موجز أو مفصل لهذه السيرة التى تؤكد حقيقتين بارزتين ، هما : أن الآداب الشعبية ليست كلها محلية محصورة فى بيئة جغرافية محدودة أو وطن معروف ، وأن الشعوب تتبادل التأثر والتأثير على اختلاف الأجناس والأديان والألوان ، على الرغم من اختلاف العصور وتباعد الديار . والباحثون إذا تجاوزوا ما فى الملاحم الشعبية من وجوه التماثل ،فانهم يسجلون ، وبخاصة عن سيرة عنترة ، أنها كانت من الروائع التى احتفلت بها أوروبا فى القرن الثامن عشر ، وربما قبل ذلك ، ثم أصبحت من الموضوعات الأساسية فى الدراسات الأدبية بصفة عامة ، وفى دراسات الأدب المقارن بصفة خاصة إبّان القرن التاسع عشر ، ولم يقل أحد من الدارسين فيها الكلمة الفاصلة إلى الآن ، فما أكثر ما فيها من العناصر الثقافية والأساليب الفنية التى تحتاج إلى تحقيق تاريخى ، وتحليل أدبى . وإذا كنا نلمس منذ البداية تشابهاً أو تطابقاً بين بعض حلقات هـذه السيرة ، وبين ملحمة السيد الإسبانية ، وأغنية الرولان الفرنسية ، فاننا لا نستطيع أن نغفل إعجاب ناقد أدبى عظيم مثل « هيبوليت تين » بهذه السيرة العربية ، ووضعها بين الروائع الملحمية العالمية مثل سيكفريد ، ورولان ، والسيد ، ورستم ، وأوديسيوس ، وأخيل ؟ كما أن الشاعر الفرنسى لامارتين كانت تأخذه النشوة ، ويستبد به الطرب كلما ذكر هذا البطل العربى عنترة ، أو اطلع على جانب من ملحمته الرائعة .

ولم يكن انتخاب الشعب العربى لهذا البطل الجاهلى بلا سبب حيوى أملاه عليه موقفه من ذاتيته القومية العامة من ناحية ، ومن الشعوب الأخرى التى تسللت إلى موطنه وغلبته على مصالحه من ناحية أخرى . ومن الواضح أن الشعب العربى إنما اعتصم بموطنه الأصلى ، وهو الجزيرة العربية ، والتفت إلى عصر نقاء الجنس وهو الجاهلية ، عندما أحس بوجدانه القومى ينبض دفاعاً عن الحمى والنفس ، بعد انحسار موجة الفتوح الإسلامية ، واستئثار غير العرب من المماليك وأشباههم بمقدرات الحكم فى أجزاء من الوطن العربى وإبّان ذلك الصراع الدموى الطويل الذى عرف بالحروب الصليبية . . . من أجل هذا كله انتخب الشعب العربى مثالا بارزاً للفروسية العربية الجاهلية وهو عنترة بن شداد العبسى الملقب بأبى الفوارس ، وهو الذى جمع

بين الفتوة والتبريز فى الشعر ، والذى أسهم فى أيام العرب المشهورة ، والذى كان من أصحاب المعلقات .

ولقد شغل الباحثون أنفسهم ، ولا يزالون ، بمحاولات الحكم على هذه السيرة الشعبية من ناحية النوع الأدبى ، ومن ناحية البناء الفنى ، ومن ناحية التأريخ ، وقلما عنوا بالباعث الأصيل الذى أثمرها . وهى كغيرها من نصوص الأدب الشعبى ، تكاملت فى بيئات عربية مختلفة ، ولم تبلغ غايتها من الكمال إلا بعد أن استنفدت الأجيال والقرون فى النماء والتطور والتراكم ، ولهذه الحقيقة دلالتها الكبيرة ، وهى : أن الوجدان القومى تشبث بالمثال الذى انتخبه ورآه ملائماً لما يريد أن يعبر عنه ، فلم يحتفظ به حقبة تقصر أو تطول ، ولم يجعله موضوع غنائه فى بيئة واحدة مهما كانت ، وإنما ظل يعبر بوساطته عن هذا الوجدان بأبعاده التاريخية ، وبما تصور من أمجاده ، وبما أراد أن يرسب من معارفه ، وبما اعتصم به من قيم يفرض على أفراده جميعاً التصعيد إليها فى السمت ، وفى الفكر وفى التعبير وفى السلوك جميعاً . ولا يردّ اهتمام الشعب العربى بشخصية عنترة على هذا النحو إلى رواة الأخبار كالأصمعى وأبى عبيدة وأمثالهما ، وإنما يردّ إلى الفترة التى عاشها هذا الفارس العربى ، واشتهر بخلائقه ومواقفه ووقائعه حتى تجاوز ذكره منازل بنى عبس إلى الجزيرة العربية أولا ، وإلى الوطن العربى الكبير ثانياً . . . ولقد ذكر عنترة أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، ولهجت به ألسنة بعض الصحابة ، وتردد اسمه فى صدر الإسلام ، وحمل الفرسان أخباره مع الفتوح ، وذكر الجاحظ أنه كان زاد العامة فى السمر ، ونمت هذه الشخصية بنمو الوجدان القومى العربى حتى تكاملت صورة الملحمة ، وتخصص فى سردها وانشادها فريق من القصاص الشعبيين ، وسجل العلماء الذين صحبوا الحملة الفرنسية هذه الحقيقة ، كما سجلها ادوارد لين الذى وصف عادات المصريين المحدثين وأخلاقهم قبل الاحتلال الإنجليزى للديار المصرية ، وكانت سيرة عنترة الأخت الشقيقة لسيرة بنى هلال ، عرف المتخصصون فى الأولى بالعناترة ، والمتخصصون فى الثانية بالهلالية . . ومن اليسير أن يتبين الدارس النواة الأصيلة التى أصبحت على مر الأجيال والقرون سيرة شعبية كأنها الشجرة المورقة بجذورها وساقها وأغصانها وثمارها .

أبو الفوارس فى الجاهلية

وهناك سؤال ينبغى على كل باحث أن يجيب عنه قبل أن يعرض للنواة الأصيلة التى تطورت حتى أصبحت سيرة شعبية ، وهذا السؤال هو : لماذا حفر عنترة بن شداد العبسى صورة شخصيته ، وأحداث سيرته فى ذاكرة الشعب العربى دهراً طويلا ، ولم تحتفل هذه الذاكرة بأنداده من فرسان الجاهلية ، وفيهم من كان أعرق نسباً ، وأوفر مالا ، وأقوى شكيمة ؟ . .

لقد ذكر الشعب العربى الزير سالم فترة من الزمن ، ولهج بسيف بن ذى يزن فترات ، ولم يكن لهما مع ذلك نفس المكانة التى لا تزال لعنترة فى وجدان الشعب العربى إلى الآن . وتكمن الإجابة فى أن محور سيرة عنترة ابن شداد العبسى يدور حول الحرية التى افتقدها المواطن العربى عندما التفت إلى الجزيرة فى مرحلة نقاء الجنس ، وإذا أردنا أن نجمل سيرة هذا الفارس فى عبارة واحدة ، فاننا نستطيع أن نقول : إنها كانت صراعاً أراد به صاحبه أن يحقق وجوده كفرد حرّ فى مجتمع حرّ ، يضاف إلى ذلك أنه كان شاعراً ، فالحديث فى سيرته واقع وتعبير معاً ، ولم تكن فطنة الشعب لتغفل عن هذه الحقيقة التى يمكن أن تكون حافزاً شخصياً لكل مواطن عربى ، وقومياً لكل مجتمع عربى. ولذلك تجاوز عنترة عصره ودياره وظل بملحمته جزءاً لا يتجزء من التراث الشعبى الحى . وإذا كان من العسير على المؤرخ أن يحقق سيرة عنترة من تلك الأخبار

والروايات المتناثرة ، فان من السهل على دارس الأدب الشعبى أن يتبين النموذج الأول بما يتسم به من تعمم ، وملامحه البارزة هى التى استغلها الشعب فى ذلك الأثر الأدبى الضخم الذى اتخذ مكانه بحق بين روائع الملاحم العالمية ، وهو نموذج الفارس العربى الجاهلى .

ولقد عرفت الأمة العربية الفرس من قديم ، ولا يستطيع المؤرخون أن يحددوا على التحقيق الفترة التى دخل فيها هذا العنصر الحى الجزيرة العربية ، وكل ما يستطيعون قوله هو أن الفروسية كانت نظاماً له عرفه المكين ، وتقاليده الراسخة مما يدل على قدم هذا النظام فى الجزيرة ، وبديهى أن الفرس كانت شارة السؤدد والشرف والغنى ، ولم يكن كل أعرابى يملك فرساً ، واعترف المجتمع بمكانتها فصانها ، وثقف تربيتها ، وحفظ لها أنسابها ، وبرز إلى الوجود فن عملى يرتبط بها فى الحرب والرحلة ، وفى التدرب على الكر والفر وحمل السلاح ، والمعجم العربى القديم غنى بالألفاظ الخاصة بالأفراس فى مراحل نموها وشياتها وأوصافها ومزاياها ، وبكل ما يقترن بها من ثقافة عملية منوعة ، وحفلت الحياة تبعاً لمكانتها هذه بالبيئات المتخصصة فى تربيتها وتدريبها ، كما حفلت بالتناظر حولها كالمنافرة على النسب والأصل والجاه والقوة ، واتخذت الفرس موضوعاً من أهم موضوعات المناظرة ، فكان الرهان عليها ، وكان التسابق بين الأفراس ، وكانت الحروب التى اشتجرت بسببها ، مثل يوم داحس والغبراء الذى أسهم فيه عنترة بن شداد العبسى .

والفروسية العربية الجاهلية تلخص جميع الفضائل التى ينبغى أن يتحلى بها كل عربى حر ، وتجملها كلمة « المروءة » التى كانت تعنى القدرة على حماية النفس والأهل والجار والضعيف والمال ، والتى كانت تعنى إلى جانب هذا كله الاستعلاء على الصغائر والبـــذل بلا مقابل ، وهذه الفضائل لا يمكن أن يتحلى بها ضعيف البدن والنفس ، فالفروسية إذن تعنى الحرية فى إطار الفضيلة ، كما يريدها المجتمع ، وتعنى القوة وما ينبغى لها من قدرة ومن دربة ومن استعلاء . وإذا كانت الفروسية الأوروبية فى أخريات القرون الوسطى نظاماً أرستقراطياً حفزت إليه عواطف الحب بانتخاب فتاة تشبه العذراء ، كما حفزت إليه العاطفة الدينية بمحاربة الخارجين عليها ، فان الفروسية العربية الجاهلية عرفت الحب العفيف هى الأخرى ، وعملت على حماية الوطن والنفس والمال ، كما عملت على تحقيق التفوق والامتياز على المجتمعات الأخرى . . . عرفت الفروسية الأوروبية الحب والدين والحرب ، وعرفت الفروسية العربية الجاهلية الحب والحرب فقط ، وهذا هو الإطار العام الذى حاول فيه عنترة بن شداد العبسى ، بل صارع ، من أجل أن يحقق وجوده وتفوقه وامتيازه حتى استحق آخر الأمر أن يلقب بعنترة الفوارس .

وما نريد أن نقع فى الدور المنطقى باستخلاص سيرة عنترة وشخصيته من شعره ، أو بتحقيق هذا الشعر على أساس من تحقيق الأخبار والروايات والأيام ، فان ذلك لا يجدى هذا البحث شيئاً ، وحسبنا أن نسجل فقط ما استقر منذ البداية فى الأخبار ودواوين الأدب من أن عنترة لم يولد حراً كغيره من فتيـــان العرب . فقد كانت أمه أمة حبشية تدعى زبيبة ، وولد على شاكلتها أسمر مشقوق الشفة حتى لقب بعنترة الفلحاء ، وعلى الرغم من انتسابه إلى شداد بن قراد من عبس ، فإنه كان عبداً يحس بعقدة الدونية فى مجتمع الأحرار بين اخوته وأبناء عمومته وما أكثرهم . وهذا الإحساس بالمغايرة بينه وبينهم فى المعاملة والمكانة ، جعله ينفر من ذل الهوان ورتابة العمل وضآلة الشأن . وأدرك أن الفروسية ربما كانت وسيلته الوحيدة إلى الحرية وكانت حظ الأحرار ، بل حظ الأشراف ، فاحتال بوسائل مختلفة حتى تدرب عليها . ولقد أعانته على بلوغ غايته ، بسطة فى الجسم ، وقوة فى العضل ، وقدرة على الصبر ، ومرونة فى الحركة ، وليس من

شك فى أن الإحساس بالمغايرة جعله يلتفت إلى ذاته المفردة أكثر من سواه ، ويعمل جهده على حمايتها من الضيم والأذى ، فكان سريع البادرة ، يرد العدوان ، حتى اشتهر أمره بالجلد فى العراك ، واللدد فى الخصومة وليس من شك أيضاً فى أنه عانى كثيراً من عوامل الصراع النفسى بين الواقع الذى كان عليه ، وبين ما ينبغى أن يحققه لنفسه . . . وهذه المواجهة للفارق بين الواقع والمثال عملت على تصفية نفسه من الصغائر وحفزته إلى الاستعلاء . . . لم يكن كغيره من العبدان مستسلماً لوضعه مفلسفاً له ، وإنما كان إيجابياً فى العمل على تغييره مهما لقى من عنت ومهما وضع فى سبيله من عقبة ... وكانت السبيل الوحيدة هى أن ينهض بعمل عام يفيد منه المجتمع كله ، وكانت فرصته عندما أغار على الحمى مغير ، وضعفت إرادة الأحرار عن رده ، فتنادوا مشيرين إلى عنترة ، وكان الحوار العبقرى بينه وبين أبيه ، وهو الحوار الذى لم يظفر بوساطته بالحرية فحسب ، وإنما ظفر بتصحيح نسبه أيضاً ، فقد « أغار بعض أحياء العرب على بنى عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلا فتبعهم العبسيون ولحقوهم ، فقاتلوهم عما معهم — وعنترة يومئذ فيهم — فقال له أبوه « كر » فقال : العبد لا يحسن الكر ، وإنما يحسن الحلاب والصر ، فقال أبوه : كر وأنت حر . . . وقاتل عنترة يومئذ قتالا حسناً ، فادّعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه »(١).

وهكذا أصبح عنترة بن شداد العبسى فارساً حراً بين فرسان أحرار ، ولكن العقدة النفسية التى حفزته إلى تحقيق الوجود الحر لم تبدد ، وإنما ظلت تعمل عملها المستمر لتحقيق التفوق ، ذلك لأنه إذا كان قد أحرز المساواة فى الحرية من الناحية المعنوية ، فان لونه الأسمر ظل كالحاجز بينه وبين الآخرين ، بل ظل كالعلامة التى تعبر عن أصل مختلف ، ولذلك لم ينقطع هذا الفارس الأسمر عن الشعور بالمغايرة ، والإحساس بالنقص ، ولا بد لمثله أن يحقق عملا خارقاً يرغم المجتمع على الاعتراف — لا بمساواته — ولكن بامتيازه . ومن حق كل امرئ حر أن يبنى بابنة عمه ، وبخاصة فى المجتمع العربى الذى لا تزال بعض تقاليده راسخة فى البداوة وما يشبهها إلى الآن ، فاذا أراد أعرابى أن يزوج ابنته كان عليه أن يحصل على الإذن من ابن عمها أولا ، ومع ذلك أحب عنترة ابنة عمه عبلة ، واقترن اسمه بها ، ولهج بذكرها فى شعره ، ووضعت الحواجز أمام هذه الرغبة ، وأنى له أن يحققها وهو الذى لم يولد حراً من أم حرة . . وهو الأسمر المعروف بشفته الفلحاء ، واندفع الفتى يتفوق على الفرسان ويستكمل مقومات المثال الذى تنشده الجماعة فى الفارس الكامل ، وكثيراً ما غضب وهجر قومه لكى يحسوا الفراغ بدونه ، ويستشعروا الحاجة الملحة إليه ، وتتحول أخباره إلى المألوف فى بطولات الخوارق ، ويطلب عمه من ابن أخيه أن يقوم بالمستحيل لكى يحظى بشرف الإصهار إليه ، أن يأتى بالنوق العصافير .

وتختلف قصة الحب التى قرنت اسم عبلة بعنترة فى أذهان الرواة والعلماء وعامة الناس عن مثيلتها فى العصر الإسلامى ، فنحن نذكر أن أبا الفوارس ، ردد اسم صاحبته كثيراً فى شعره ، بل أنه جعلها محوراً رئيسياً تدور عليه معلقته المشهورة ، ومع ذلك لم تقم هذه القصة على الصراع بين الحب الأفلاطونى من ناحية ، وبين عرف الجماعة أو تقاليدها من ناحية أخرى كما هو الشأن فى قصة « ليلى والمجنون » . . . كان الحب عند عنترة حافزاً رئيسياً من الحوافز النفسية على تحقيق الوجود ، والظفر بالحرية ، والتفوق على الفتيان والأنداد ، ولم تكن رمزاً لوجود خلاف أو صراع بين الفرد وبين إطاره الاجتماعى . . . كانت عند عنترة العامل على الالتحام بالإطار الاجتماعى ، وتأكيد المثال الذى ترتضيه الجماعة لكل فرد حر من أفرادها الأحرار ؛

(١) أبو الفرج الأصبهانى : الأغانى : جـ ٨ ص ٢٣٩

أما ليلى وصاحبها قيس ، فكانت قصتهما رمزاً لتطور جديد من النموذج فى القبيلة إلى الشخصية الفردية فى المجتمع الإسلامى . والحب فى القصتين عذرى عفيف . وهو ما ميز عنترة بن شداد العبسى عن الفرسان الجاهليين الناهبين فى نظر الشعب العربى ، فانتخبه وعمل على تجسيم شخصيته والتزيد فى سيرته وأخباره ووقائعه . ولا بد للباحث أن يفرق هنا بين صنيع الخبر التاريخى ، أياً كانت صلته بالواقع ، وبين الملحمة الشعبية ، فإن الأول يتسم بالتعميم ويؤثر التبرير ، وقد يميل إلى التعليل ، أما الثانية فتجنح إلى التفصيل والتخصيص بما تعرض من شخوص ومواقف وعلاقات وأقوال . . وأيّاً كان الأمر من ناحية التحقيق التاريخى ، فان قصة الحب كانت محوراً رئيسياً جعلت عنترة لا يذكر إلا إذا ذكرت معه صاحبته عبلة . وليس أدل على هذا الاقتران من قيام تقاليد الزواج فى بعض البيئات البدوية إلى الآن بتمثيل فروسى لعنترة وعبلة حتى فى بعض إمارات الخليج العربى .

وكان من الطبيعى أن يتحد التفوق فى الفروسية بالنبوغ فى الشعر إبان العصر الجاهلى وفى مرحلة نقاء الجنس ، ذلك لأن الشعر لم يكن مجرد تزجية فراغ يقوم بوظيفة التسلية والترفيه ، ولكنه كان فى واقع أمره جهداً حيوياً تتطلبه القبيلة فى تحقيق وجودها المتميز بأنسابها ، المتفوق بأيامها ، ولذلك امتزجت الفروسية بالشعر ، واشتهر بهما معاً صوّالون قوّالون من فرسان الجاهلية . ولا تحجب الطبيعة الغنائية الغلابة على الشعر الجاهلى وظيفته الحيوية فى القبيلة ، ومهما استطاع الباحث أن يتبين بعض المقومات الشخصية فى عنترة العبسى ، فإن هذه المقومات إنما تصور النموذج والمثال لما ينبغى أن يكون عليه الفارس الجاهلى ، وهذه معلقة عنترة المشهورة تصور بجلاء هذا النموذج ، وذلك المثال ، فهو لا ينازل إلا خصما يكافئه قوة وشجاعة ، وكرم محتد . وهو « يعف عند المغنم » والعلاقة بينه وبين فرسه آصرة تضعف أمامها جميع الأواصر . . . إنه ليس كائناً خارجاً عن ذات الفارس ، ولكنه جزء لا يتجزأ من شخصيته ، وبينهما من التعاطف ما يجعله نجى الفارس ، وكأنه القرين الخفى أو القوة الدافعة إلى النصر ، أو الضمير الضابط للسلوك . ولقد عرفت الآداب الأوروبية هذه الحقيقة الرائعة فى شعر الفروسية العربية فسجلتها ونقلت الكثير من شواهدها . وعنترة فى معلقته سمح كريم يستعلى على الصغائر ، وينهض بما ينبغى للفروسية من تقاليد فى الشراب وما إليه فهو « هتّاك رايات الخمار » ومن الظلم لشعر الفروسية الجاهلية أن يحكم عليه بمعيار أخلاقى فحسب ، فلا تزال أمثال هذه التقاليد موجودة فى البيئات الجرمانية التى ترد أصولها إلى الفروسية .

وفطن الشعب العربى إلى هذه المقومات جميعاً فى عنترة بن شداد العبسى فانتخبه ، مؤثراً إياه على غيره من الفرسان الجاهليين ، وألف من صراعه فى سبيل الحرية وظفره بها عن طريق النفع العام ، ومن حبه العذرى العفيف لابنة عمه ، ومن عمله الدائب على تحقيق الوجود والتفوق معاً ، ومن اتصافه بالمروءة العربية التى تجمع فى قوسها أسباب القوة والشهامة والاستعلاء وحماية الأهل والوطن والمال ، وإغاثة الضعيف والملهوف . : ألف من هذا كله نواة متحدة العناصر ، منسجمة الأجزاء ، وأخذ ينميها ويصقلها لتكون تعبيراً متكاملا عن رأيه فى نفسه وعن موقفه من غيره ، وعن الأهداف التى ينبغى أن يعمل لتحقيقها ، فكانت الملحمة التى أخذت مكانها بين الروائع من ملاحم الشعوب .

تأريخ السيرة

ولقد حرص بعض مؤرخى الأدب العربى الجاهلى شرقيين ومستشرقين ، على الموازنة بين الأخبار والروايات من جهة ، وبين المعالم التاريخية البارزة من جهة أخرى لكى يحددوا الفترة الزمنية التى استغرقتها

حادثة أو واقعة ، ولكى يضبطوا التاريخ – ولو بصورة مقاربة – لميلاد علم من الأعلام أو رفاقه . ونحن نسجل هنا أن الجاهلية المعروفة ليست كل الزمان الذى سبق التاريخ العربى المدون . . . إنها ليست عصر ما قبل التاريخ العربى ، ولكنها الجاهلية الثانية باعتراف المؤرخين الأقدمين أنفسهم ، وسبقتها من غير شك جاهلية أولى أطول عمراً . والجاهلية الثانية التى أثمرت عنترة بن شداد العبسى ، إنما سبقت الإسلام بفترة وجيزة ،وعلى الرغم من القول المردَّد فى إنكار الروايات والأخبار المتعلقة بهذا الفارس الشاعر ، وعلى الرغم أيضاً من شك بعض الدارسين فيما نسب إلى أبى الفوارس من شعر فصيح ، فان هناك علاقة وثيقة بين هذا الفحل من أصحاب المعلقات ، وبين أيام داحس[1] والغبراء ، وهى الأيام المشهورة بوقائعها التى اشتجرت بين عبس وذبيان وما من كتاب سجل « أيام العرب » طوالها وقصارها إلا وذكر معها اسم الشاعر الفارس عنترة بن شداد العبسى ، ولقد جمع عنترة فى هذه الأيام بين الفروسية والشعر معاً ، وما أكثر ما أبلى فيها البلاء الحسن هجوماً ودفاعاً وحماية للظعائن ومن شعر عنترة فى وقعة الفروق التى تبعد عن سوق هجر نصف يوم يقول عنترة :

ونحن منعنا بالفروق نســاءنا
نُطرفُ عنها مبسلات غواشيا
حلفت لها والخيل تدمى نحورها
نفــارقكم حتى تهزوا العواليــا
ألم تعلموا أن الأسنة أحرزت
بقيتنــا لو أن للدهــر باقيا
ونحفظ عــورات النساء ونتقى
عليهن أن يلقــين يوماً مخازيا

(١) اسما فرسين لقيس بن زهير وتشتمل هذه الحرب أيام المريقب وذى حساء واليعمرية والهباوة وفروق وقطن

ونحن إذا حاولنا أن نؤرخ لهذه السيرة الشعبية فإن علينا أن نتذكر حقيقة بارزة لا يمكن اغفالها وهى استحالة تحديد فترة مضبوطة استغرقتها قريحة أديب ما فى الجمع والتأليف ، ذلك لأن الآثار الشعبية تتسم بالحياة والمرونة معاً . . . تسقط منها حلقات ، وتضاف حلقات ، ويتعدل السياق ، وتختلف الوظائف وإن ظلت المحاور الرئيسية على حالها لثبات الحوافز إلى وجود هذه الآثار وتفاعلها المستمر مع وجدان الشعب العربى. وليس صحيحاً أن يزعم دارس أن هذه السيرة وأشباهها قد نجمت فى حدود سنوات بأعيانها ، وأنها من تأليف شخصية معروفة بمقوماتها النفسية وخصائصها الأسلوبية. والصحيح أنها كانت نواة ثم نمت على الأيام حتى تكاملت فاستقرت آخر الأمر على صورة ثابتة لا تكاد تتغير ، والصحيح أيضاً أنها ، حتى بعد مرحلة التكامل والثبات ، تتعرض لما تتعرض له النصوص الشعبية ، فتنفرط بعض حلقاتها ، وتتخذ أشكالا جديدة ، وقد تنمو خلية منها بمعزل عن أصولها ، وقد تتبدد كلها وتبقى ظواهر فى أمثال الشعب ، أو بعض تقاليده .

وتفضل سيرة عنترة غيرها من السير الشعبية التى نمت عن نواة فى العصر الإسلامى المتأخر ، مثل سيرة بنى هلال ، ذلك لأن عنترة بن شداد العبسى من فرسان الجاهلية ، ومن فحول الشعر الفصيح ، أما بنو هلال فهم جمع حاشد من فرسان قيس ، كروا على الوطن العربى أواخر العصر الفاطمى ، ومن اليسير على الباحث أن يوازن بين مقومات عنترة فى الأدب الفصيح ، وبين مقومات السيرة الشعبية أو أن يوازن بين النواة ، وبين تلك الصورة المتضخمة فى الأدب الشعبى .

وهناك أخبار تحاول أن تعلل السبب فى تأليف سيرة عنترة ، بل تحاول أن ترد هذه السيرة إلى مؤلف بعينه ، وهذه الأخبار تزعم أن قصر الخلافة الفاطمية فى الديار المصرية تعرض لفضيحة تزرى من شأنه بين

العامة ، فطلب إلى أديب معروف بأن يؤلف قصةمشوقة تلهى الشعب عن فضيحة القصر ، فكانت سيرة عنترة ، ونحن قبل أن نناقش تلك الأخبار ، نرى من واجبنا أن نسجل ، أن الأدب الشعبي العربي ، بل كل أدب شعبي كثيراً ما يجنح إلى خلق قصة تبرر أصلا من الأصول أو تلفق سبباً من الأسباب ، وهو أسلوب شعبي يعمد إلى تغطية الثغرات ، والإيهام بمعرفة المجهول ، والميل الدائم إلى التبرير ، لا بمنطق العقل ، ولا بتسجيل الواقع ، ولكن بأسلوب التخييل الفني .

وقد نقل أحد مؤرخي الأدب العربي المحدثين أنه قد « نشأ بمصر من أفاضل الرواة الشيخ يوسف بن إسماعيل كان يتصل بباب العزيز في القاهرة فاتفق أن حدثت ريبة في دار العزيز لهجت الناس بها في المنازل والأسواق فساء العزيز ذلك وأشار إلى الشيخ يوسف أن يطرف الناس بما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث . وكان الشيخ يوسف واسع الرواية في أخبار العرب كثير النوادر والأحاديث ، وكان قد أخذ روايات شتى عن أبي عبيدة ، وعن ابن هشام وجهينة اليماني الملقب بجهينة الأخبار وعبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعي وغيرهم ، فأخذ يكتب قصة لعنترة ويوزعها على الناس ، فأعجبوا بها واشتغلوا عما سواها . ومن تلطفه في الحيلة أنه قسمها إلى ٧٢ كتاباً والتزم في آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند معظم الكلام الذي يشتاق القارئ إلى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه فاذا وقف عليه انتهى به إلى مثل ما انتهى الأول ، وهكذا إلى نهاية القصة . وقد أثبت في هذه الكتب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها غير أنه لكثرة تداول الناسخين لها فسدت روايتها بما وقع فيها من الأغلاط المكررة بتكرار النسخ » .

وهذا القول يعني أنها من تأليف شخص واحد بذاته وأن بناءها الفني الضخم تكامل في إطار زمني محدد وبحافز من خارج نفسية هذا المؤلف . هو قول لا يحتاج إلى كبير عناء في نقده ، وإن كان يدل على إعزاز العامة من العرب للبطل عنترة .

ومما يدخل في باب الإيهام الفني تشبث السيرة نفسها ، بعد أن تكاملت ، بالانتساب إلى واحد من أعاظم الرواة والإخباريين وهو الأصمعي ، ولم تحفل السيرة بترجمة صحيحة لهذا الراوية الفحل ، ولم تشغل مستمعيها أو قراءها بعد ذلك ببطاقة الحياة الإنسانية ، ولكنها عمدت إلى أسلوبها المقرر المعروف بالجنوح إلى المبالغة في الخيال ، فقد ذكرت أن الأصمعي من المعمرين ، وأنه عاش ما يقرب من سبعة قرون ، ولم يكن هذا التلفيق عبثاً ، وإنما كان فنياً في جملته وفي تفصيله للايهام بأن هذا الراوية عاصر أحداثاً وأجيالا ، وأن ذاكرته كانت بمثابة التاريخ القومي للأمة العربية بأسرها . وحرصت السيرة على أن تذكر أنها إنما نشأت في العصر الذهبي للدولة الإسلامية ، أي في عصر هارون الرشيد ، وفي بلاطه ، وذلك لكي تؤكد الحافز على تكاملها وهو الموازنة الضرورية بين واقع الأمة العربية المغلوبة على أمرها في أوليات الحروب الصليبية ، وبين عصر البطولة الجاهلية ، وما ينطوي عليه من فضائل نقاء الجنس ، والعصر الذهبي الذي بلغته أمة العرب والإسلام أيام الرشيد عندما كانت هي الأمة المستكملة للتفوق الحضاري على غيرها من الأمم . فاذا أضفنا إلى هذا كله التشبث بالمنهج الفني نفسه ، تأكيداً لواقعية الأحداث بالقول بأنها روايات مباشرة عن عنترة نفسه ، وعن حمزة ، وأبي طالب ، وحاتم الطائي ، وامرئ القيس ، وهانىء بن مسعود ، وحازم المكي ، وعمرو بن ود ، ودريد بن الصمة ، وعامر بن الطفيل ، فاننا نكاد نقطع بأن التشبث بالأصمعي ، وإيراد أسماء هؤلاء الأعلام جميعاً ، لا يدل على حقيقة تاريخية أو شبه تاريخية ، بقدر ما يدل على الإيهام الفني بواقعية الأحداث والشخوص ، وإن خرجت عن المألوف والممكن والمعقول .

وكل من يراجع هذه السيرة فى صورتها المتكاملة المدونة يجد أنها تردد مصطلحات معروفة فى عـــالم التأليف العربى ، وهى مصطلحات متباينة الدلالة ، وتوهم بدورها ، بأن السيرة متعددة المصادر ، منوعة الموارد ، مختلفة الأطوار . فهى تذكر — مثلا — الراوى وهو كما نعلم مصطلح يدل على جامع الأخبار والأقوال عن طريق المشافهة واللقاء المباشر ، وتذكر الناقل ، وهو لفظ يدل على حكاية الخبر بحذافيره ، كما يدل على التطور من الرواية الشفوية إلى النسخ والتدوين ، وتذكر المصنف ، وهو الذى يعمل على الجمع والترتيب معاً ، وهو مرحلة أقل هوناً من المؤلف . ويبدو أن هذه المصطلحات إنما اقتبست من رواية التاريخ والأدب الفصيح ، ونحن نعلم أن المعرفة العربية ، احتفلت منذ البداية بالخبر والإسناد معاً ، وهو تقليد نفذ إلى منهج الأدباء الشعبيين الذين اتخذوا فى مجتمعاتهم سمت العلماء ومكانتهم .

ويدخل فى هذا الباب ما تورده السيرة أيضاً ، من أن لها موردين رئيسيين ، أو روايتين مختلفتين ، فهى تذهب إلى أن هناك « السيرة الحجازية » لكى تدخل فى روع المتذوقين أنها جمعت من أفواه أبطالها مباشرة ، وجنحت تبعاً لذلك إلى جعل الحجاز هو الموطن الأول لأحداثها ، وهو تلفيق لا يحتاج إلى معاناة فى رفضه ، وذكرت أيضاً ، أن هناك السيرة العراقية ، وربما أسهمت العراق فى نمو هذا الأثر الشعبى ، ولكن القول بوجود رواية عراقية متميزة ، لا يستند هو الآخر إلى واقع أو شبه واقع . . . وخير من هذا كله أن يحاول الباحث تمييز الإشارات التى تنطق بيئتها وعصرها ، والتى تدل مجتمعة على أطوار النمو والتكامل .

لقد استغرق مسرح الأحداث فى هذه السيرة الشعبية العالم المعروف بأسره قبل الكشوف الجغرافية ، كما أن الزمن الذى استغرقته يستوعب ما يقرب من ستة قرون ، ومع ذلك فان الباحث يستطيع أن يحدد — بصفة مقاربة — المرحلة الأولى لنموها عن النواة الجاهلية الأصلية إلى شجيرة تنم عن فصيلتها ، وذلك بالرجوع إلى المجلد الحادى والثلاثين من هذه الملحمة الطويلة الضخمة ، فان عنترة يغوص فى نفسه ، ويستجمع وقائع سيرته وهو يحتضر بقصيدة طويلة ، وهو فيها يفاخر بانتصاراته فى جزيرة العرب ، وفى العراق ، وفارس ، والشام ، ولكنه لا يشير من قريب أو بعيد إلى بلاد الروم ، أو الأندلس ، بل لا يذكر شيئاً عن برقة ومصر والسودان والحبشة وبلاد الهند . وهذه القصيدة إنما تنبض بعاطفة حب واحدة وهى العاطفة التى عرفناها عند عنترة بن شداد الفارس الجاهلى ، ولذلك يمكن أن يقال إن النواة التى أثمرتها الفروسية الجاهلية ، والتى قرنت اسم عنترة بعبلة ، وجعلت منهما المحور الرئيسى للأحداث هى التى ترعرعت فى مرحلتها الأولى ، ثم مرت بعد ذلك بمرحلة تالية تكاملت فيها .

ويذهب المستشرق هلر إلى أن سيرة عنترة إنما بدأ تصنيفها فى أوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، وإن كان قد أورد بعض الأدلة التى تبين أن هذه السيرة كانت معروفة فى طورها الأول قبل ذلك بحوالى ثلاثة قرون(١).

ولا يزال الدارسون يعكفون على النظر فى مخطوطات هذه السيرة المبعثرة بين دور الكتب فى القاهرة وصنعاء وإستطنبول وباريس ولندن وبرلين وغيرها . وقد تنتهى دراساتهم إلى نتائج ذوات قيمة فى ترجيح فترة زمنية أو فترات زمنية ، استغرقتها هذه الملحمة الضخمة فى التطور ثم التكامل فالثبات على صورتها الأخيرة التى يعرفها العالم الآن، بيد أن هـــذه النتائج لن تخرج على الترجيح إلى اليقين ، ذلك لأن مثل هذا النص الشعبى فى تأليفه وتذوقه جميعاً ، لا يمكن

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، ج ١٢ ص ٤٦٥

أن يخضع للأصول والقواعد التى تخضع لها نصوص التراث الرسمى ، أو الفصيح المعتبر ، ولقد فات بعض الباحثين أن النص الشعبى ، وإن قام فى أصله على الحفظ والرواية الشفوية ، والأداء المستقل عن القراءة فانه يتوسل بالتدوين فى بعض البيئات والعصور . وهذا التوسل لا يخرجه عن شعبيته بحال من الأحوال . والمتخصصون فى الفنون والآداب الشعبية يقررون هذه الحقيقة ويسجلون بعض الشواهد التى توسلت بالتدوين ويذهبون إلىأن الشواهد الشعبيةالمدونة متأخرة عن مرحلة الإبداع وما تلاها ويلاحظون أن بعض المحترفين يلجأون إلى التدوين ، خوفاً من ضعف الذاكرة ولكنهم فى الوقت نفسه كثيراً ما يستعملون رموزاً خاصة بهم يثبتونها فى تضاعيف النص حتى تظل النصوص مصونة ، إلا على أصحاب الحرفة ، كما أنهم يسقطون فى أحيان أخرى مشاهد كاملة ويكتفون بمجرد الإشارة إليها لأن هذه المشاهد من الذيوع والشهرة بحيث لا تند عن الذاكرة . وهى مشاهد كثيراً ما ينقلونها من سيرة إلى سيرة . ومن أجل ذلك كان من الضرورى أن يعتمد الباحث على الأداء الحى المتكامل وأن يعمد إلى تحليله من داخله قبل أن ينظر فى المخطوطات .

وتقودنا هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى لا تقل عنها أهمية ، فيما يتعلق بتاريخ السير الشعبية العربية بصفة عامة ، وتاريخ سيرة عنترة بصفة خاصة وهى أن الظواهر الأسلوبية لا تقوم هى الأخرى دليلا على عصر التأليف أو بيئته أو شخصية المؤلف أو المؤلفين لأن سيرة عنترة وأمثالها تخضع للقوانين التى تحكم المأثورات الشعبية ، فان هذه المأثورات تسير فى طريقين متعاكسين ، أولهما من قاعدة الهرم الاجتماعى إلى ما فوقها من الطبقات الاجتماعية والثانى يسير من قمة الهرم الاجتماعى إلى سفحه .

ولا يتعارض هذا السير مع شعبية تلك المأثورات كما أن القرية كثيراً ما تأخذ من البداوة وكثيراً ما تعطى المدينة . وفى مقابل هذا تتقبل البيئة الريفية بعض ما تصدره المدينة من القيم والمثل ومن التعابير الأدبية والفنية . وسواء أكانت سيرة عنترة قد انحدرت من القمة إلى السفح وبدأت جزلة اللفظ معربة التركيب أنيقة الصياغة ، أو ارتقت من القاعدة فصقلت ألفاظها وأحكمت عباراتها فانها فى الحالين ارتبطت بالشعب : هو الذى انتخبها ونماها ، أو أعان على تنميتها وهو الذى جعلها جزءاً لا يتجزأ من كيانه المعنوى يعبر بها عن ذاتيته العامة وموقفه الخاص فى مختلف البيئات وعلى مر القرون . ونحن نضرب المثل على الفارق بين أسلوبين فى نسخ السيرة ولننظر فى هذه العبارة الأنيقة : « قال الأصمعى ؛ ونزلت عليهم البوائق . وحقت منهم الحقائق . وتضاربوا بالسيوف على العواتق فقطعت منهم العلائق وتطاعنوا بالرماح فكانوا للدروع خوارق ، وتضاربوا بالسيوف فكانوا كالصواعق ، فلم ير إلا رمح خارق وسيف بارق وفارس شاهق والخصم لخصمه معانق والشجاع فى الدم غارق . والقنا عليهم قد مد على الفرسان سرادق ، فسبحان العظيم الخالق ، والحاكم بالفنا على الخلائق[1]» وهذا وصف يتسم بالتعميم لإحدى المعارك التى خاضها عنترة منتصراً على أعدائه ، ومن الممكن تطبيقه على أية معركة أخرى فى سيرة شعبية غير هذه السيرة .

أما المثل الثانى فهو أيضاً على تعميمه يختلف عن الأول من ناحية الأسلوب : وهو تصوير لمعركة خاضها مظفرا الغضبان بن عنترة « قال الراوى : انهما حملا علىّ بعضهما بعض وجالا طولا وعرض ومال كل

---

(١) من مخطوطة عن المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة مصوره من نسخة بمكتبة أحمد الثالث باستامبول ، وتجد وصفاً لها وتحليلا فى (سيرة عنترة للدكتور محمود الحنفى ذهنى) رسالة جامعة ص ١٣٢

منهما على صاحبه واحترز من وقع طعانه ومضاربه وتلمت فى أيديهما سيوفهما وكلت سواعدهما فعند ذلك حقد الغضبان على خصمه وهجم عليه كأنه فرخ الجان وضربه بالحسام فالتقاه بكفه فانقطع وأثنى على رأسه فوقع وعن جواده مال وانصرع فصاحت بنو مزينة فحملت على الغضبان حملة عنان فهنا لك علم مقصودهم فحمل والتقاهم بقلب أقوى من الحجر وجنان أجرى من تيار البحر إذا زخر وسطا على الشجعان ومال على ذلك الجمع وأبلاهم بالضرب والطعان فصار يجول فيهم وحده وهم يتنافرون من بين يديه ، وما منهم أحد يستطيع الوصول إليه وداموا على ذلك الحال إلى وقت الزوال(١)» وعلى الرغم من الفارق بين المشهدين فاننا نلاحظ التفاوت الهائل فى الأسلوب مما يؤكد تداخل الثقافة الشعبية فى العلم التقليدى والأدب الرصين ، وهذا ثمرة الحركتين اللتين تسير فيهما المأثورات الشعبية صعوداً وهبوطاً بين قمة الكيان الاجتماعى وسفحه .

وليس من شك فى أن التدوين ثم الطباعة ، قد أعانا على ثبات هذه الملحمة الشعبية الرائعة وارتقيا بها من ناحية الثقل والتناسب ، ولكن ذلك لم يمنع الناسخين والطابعين من التحريف فى أحيان كثيرة ومن التزيد وإقحام عناصر تخرج عن إطارها الفنى . وخـير للدارس أن يحاول الإبانة عن عناصرها أو حلقاتها الكبيرة ، لأن فى ذلك الكشف عن الحوافز التى دفعت الشعب العربى إلى انتخاب عنترة بن شداد العبسى الشاعر الفارس ، إلى انتخابه وتصويره بطلا قومياً وإنسانياً فى وقت واحد وهذه البطولة هى التى استوعبت مثل الشعب العربى وقيمه الأخلاقية وآماله فى تحقيق الوجود والتفوق ، كما حققهما عنترة فى سيرته الشعبية الرائعة .

(١) سيرة عنترة بن شداد — طبعة القاهرة — مطبعة سعيد الخصوصى ، المجلد السادس ص ١٥٤

بطولة عنترة

وهذه السيرة يغلب عليها الطابع الملحمى وهى تماثل السير الشعبية الأخرى من هذه الناحية ولكنها فى الوقت نفسه أوسع مجالا من شقيقاتها . وهى كغيرها من الملاحم تختلف عن كتاب « ألف ليلة وليلة » الذى يجمع المتخصصون فى الآداب الشعبية على جعله مثالا للقصص الشعبى على الرغم من أسلوبه وبنائه الفنى : ويأتى الاختلاف من الناحية الوظيفية فى كل منهما ، فإن الليالى تعمد إلى التشويق بالجمع بين التنوع والتداخل معاً ، أما سيرة عنترة فأدنى إلى الكائن العضوى الذى أخذ فى النمو حتى تضخم عندما تكاملت صورته . ووظيفة الليالى هى العمل بوساطة القصص على إيثار الوسط الذهبى فى السلوك وهو الاعتدال وعدم الاستجابة لنزعات الغضب وهى وظيفة عرفتها الحكايات الشعبية الهندية قبل « ألف ليلة وليلة » بأحقاب وأحقاب . بيد أن سيرة عنترة إنما تستجيب لحوافز قومية وإنسانية ، وقد تحولت آخر أمرها إلى عامل حيوى من عوامل التسلية والترفيه بتفريغ شحنة الشعور عند العرب بوسيلة تخيلية تجعل الحلم مقدماً على الواقع فى نفوس الجماهير .

ويستطيع الباحث أن يستجلى مراحل البطولة العنترية فى السيرة باستجلاء مختلف الوظائف التى تقوم بها . وإذا كان الدارسون قد استطاعوا أن يتبينوا فى كتاب « ألف ليلة وليلة » بيئات مختلفة تكاملت فيها الليالى مثل بيئة الهند وفارس وبيئة العراق وبيئة مصر فاننا بالاعتماد على الجانب الوظيفى فى السيرة نستطيع أن نتبين الحلقة العربية القومية والحلقة الإسلامية والحلقة الإنسانية إلى ما يشوب هذه الحلقات من حصيلة معرفة وركام أساطير .

ولقد استغرقت السيرة خمسة قرون أو تزيد ، واستنفدت فى تأليفها حتى تكاملت مرحلة أطول . وهى لذلك تشبه بؤرة العدسة فى تجميع المعارف والخبرات

والتعابير والروايات والأخبار ، ولما كانت الشعوب ليست جزراً منعزلة عن الجماعات الإنسانية الأخرى ، فإن سيرة عنترة تعكس تراكم الثقافة العربية على مـدى القرون ولا تجد بأساً من تمثل ثقافات أخرى من بلاد فارس ومن بيزنطة وروما ومن قلب إفريقيا ، بيد أن هذه العناصر الثقافية كلها قد انتخبها مزاج الشعب العربي ، وطبعها بميسمه .

ولنبدأ بالحلقة العربية القومية وهي تضرب بجذورها في جزيرة العرب ، وهي موطن نقاء الجنس وتنتظم تاريخ الشعب العربي في الجاهلية والإسلام معاً وهي تشبه — إلى حد ما — أيام العرب التي تنقسم إلى أيام جاهلية وأخرى إسلامية . ولقد فطن مؤلفو السيرة إلى وجوب المزاوجة بين الوظيفة القومية والوظيفة الدينية فمهدوا لأحداث الملحمة بقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وساروا في ذلك على منهج مصنفي التاريخ العام ومنهج النسَّابة الذين يقدمون لوقائع التاريخ أو سلاسل النسب ، بالحديث عن سيدنا إبراهيم وفي ذلك إرهاص بظهور الإسلام في الوقت نفسه .

وفي هذا الإطار نشأ عنترة مع إبراز الاستعداد لنشأته ، وعند القصاص الشعبي الصورة الكاملة للفارس العربي كما ينبغي أن تكون في خياله ، ولذلك رأينا هذا القصاص يرسم صورة عنترة في طفولته مخالفة كل المخالفة لصورة الأطفال والغلمان فقد كان وهو رضيع يمزق الأقمطة ، ويسقط الخيمة وهو في الثانية من عمره ، ويقتل الكلب وهو ابن أربع ، والذئب وهو ابن تسع ، والأسد وهو فتى ، حتى إذا استكمل مؤهلات الفروسية نهض بتبعاتها كخير ما ينهض الفارس المثالي وتجاوز الدفاع عن القبيلة إلى توحيد الجزيرة العربية فنازل الأقران حتى اعترفوا به مقدماً عليهم وصرع الأعداء الذين يكافئونه عزيمة وجلداً وإقداماً . وهو في هذه المعارك والثارات يحقق فضائل الفروسية ويوحد العرب ويستعلي على الصغائر ويكتفي من بعض أعدائه بالإقرار له بالغلب . ويصدر في سلوكه عن حب عذري لابنة عمه عبلة ، ويجعل من حبه هدفاً يمتزج بتحقيق الفضائل والمثل : من أجلها ومن أجل المجتمع بأسره حقق ذاته ، وباسمها كان القسم حتى في حومة الوغى ، وبين قعقعة السلاح وسقوط الأبطال ، تماماً كما هو شأنه في الأدب الفصيح حين يهتف بهذين البيتين الرائعين :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيـــل السيوف لأنها
لمعت كبـــارق ثغرك المبتسم(١)

ومن أبلغ أمارات الفروسية العربية الإلحاح على علاقة الفارس بسلاحه رمحاً كان أو سيفاً ، وهي علاقة تسبغ الحياة على السلاح وتمنحه اسماً يخصصه ويعرف به وتجعله جارحة أصيلة من جوارح الفارس لا تنفصل عنه فالسيف ليس وسيلة فحسب ولكنه إرادة الفارس المحققة لأهداف الفروسية . وليست سيرة عنترة بدعاً في تأكيد هذه العلاقة بين ملاحم العرب الأخرى ولكنها تبالغ في تصويرها . ويشبه عنترة في عشقه لسيفه ، وفي حرصه عليه بطلا آخر في سيرة عربية أخرى هو « دياب بن غانم » في سيرة بني هلال الذي أوصى ، إذا بلغته الوفاة أن يدفن إلى جانب سيفه : ومن هذه الأمارات البليغة أيضاً تعلق الفارس بالفرس فإنها أعظم بكثير من أن تكون مجرد مطية للفارس تعينه على الرحلة وعلى القتال : إنها أكبر من أن تكون شارة عز وسؤدد لصاحبها في المجتمع الذي ينتسب إليه . ولقد كان « الأبجر » فرس عنترة رفيق سلاح فيه ملامح إنسانية ، بل فيه أحياناً ملامح أسطورية ، وليس هناك أوفى من الفارس لفرسه ، ولا أحب من الفرس للفارس وإن صورة عنترة وهو يتأهب للمعركة أو يخوض

(١) ديوان عنترة

عمارها أو يعود منها منتصراً على عدوه لمن أروع الصور فى ملاحم الشعوب على اختلاف عصورها وبيئاتها .

وكان من الطبيعى أن تتطور الوظيفة القومية العربية إلى وظيفة إسلامية، ذلك لأن الوظيفتين لا تتعارضان ولكنهما تتكاملان والوجدان الإسلامى إنما هو نمو للوجدان القومى العربى . وكان من اليسير على القصاص الشعبى أن يمزج الوجدانين ، وما أيسر أن يتوسع فى الوجدان القومى حتى يلتقى بوجدان أرحب هو الوجدان الإسلامى ، وأمامه « أيام العرب الإسلامية » ولكنه لم يصدر فى توسعه عن عصبية ضيقة ، قبلية كانت أو إقليمية ، وإنما صدر عن مثل أعلى يحاول تمهيد الحياة للإسلام . من أجل هذا كله تجاوز عنترة بن شداد الجزيرة العربية ورحل الى فارس وإلى بلاد الروم وسار — ولكن بطريق عكسى فى نفس الربوع التى سارت فيها الفتوح الإسلامية . وكان عنترة يعين قوماً ويحارب أقواماً ، وفى هذه المرحلة ظهرت ملامح من المجتمعات الصليبية ، وبرزت شواهد تدل على معرفة القصاص الشعبى ببعض مقومات المجتمعات الصليبية ، ويبدو أنه ثقف هذه المعرفة فى الفترة الأولى من الحروب الصليبية ، ويبدو أيضاً أنه استمد معرفته من تلك الجيوب التى تسللت إلى داخل الوطن العربى . . ولقد صورت السيرة الشعبية التسامح الإسلامى كأعظم ما يصور ، وفرقت بين السلام وبين الاستسلام وليس هنـــاك اعتراف بهذه الفضيلة أقوى من اعتراف المستشرقين أنفسهم وهم يوازنون بين صنيع سيرة عنترة من ناحية وصنيع الملاحم الأوربية التى تكاملت فى القرون الوسطى . وهاك ما يقوله أحد هؤلاء المستشرقين :

« أما العطف الواعى على المسيحية والنظرة السمحة إليها فان الصورة التى نستشفها من سيرة عنترة فى ذلك تسمو كثيراً على الصورة التى تتكشف لنا عن النظرة التى تنظر بها الملحمة المأثورة عن مسيحية القرون الوسطى إلى الإسلام حيث يصور المسلمون وهم يعبدون أصناماً من قبيل أبولو، وكاهو، وكوملان، وجوبتر، ومارجو، ومالكدان ، وتبرقاجان وما إليها ، وتنظر سيرة عنتره إلى الحروب الصليبية نظرة لا تخلو من العطف والاعجاب . صحيح أن الصليبيين يذكرون فيها فيقال إنهم أولئك الذين يشخصون إلى الأراضى المقدسة طلباً للغنائم وفراراً من العقاب . إلا أن الفرنجة يقاتلون فى سبيل الرب وفى سبيل نشر الدين »(١).

ومن الظواهر التى لها دلالتها فى هذه السيرة أنها كانت تحاول أن تجعل الأعداء ، فى معظم الأحيـــان أنداداً للبطل عنترة ، بل إنها بالغت كثيراً فى الإلحاح على هذه الظاهرة حتى جعلت بعض فرسان الصليبيين من أبناء الفارس العربى وفى هذا ، ما يدل على الاعتراف بشجاعتهم ، ورد هذه الشجاعة بطريقة فنية لا تقيم وزناً للواقع التاريخى إلى أصل عربى فنحن نجد أن ولدى عنتره الذين أخذا بالثأر من قاتل أبيهما فارسان من بيئة غير إسلامية هما الفارسان المسيحيان ، بل الصليبيان الغضنفر قلب الأسد وهو ابنه من أخت ملك رومه التى تزوجها وهو فى رومه والجوفران (ولعله جوفرى) وهو ابنه من أميرة افرنجية، وما أروع القصاص الشعبى الذى أبرز بنوتيهما للبطل العربى قبل حادث مصرعه ثم ألقى عليهما تبعة الثأر لأبيهما . وما أروعه كذلك عند تصويره لهذين الفارسين غير الإسلاميين ، وهما يتلقيان نبأ موت أبيهما، وكل ما يريد أن يقوله عن طريق الفن القصصى هو أن الشجاعة سمة من سمات العرب حتى ولو برزت فى بيئة أخرى .

ومن اليسير أن يواجه المرء القيم الإنسانية فى الآثار الأدبية الكبيرة مثل سيرة عنترة ، فان التحول من الصورة القومية العربية إلى الصورة الإسلامية العامة يعنى

---

(١) برنهاود هيلر : دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية المجلد ١٢ ، ص ٤٦٢

بالضرورة إبراز الفضائل الإنسانية الثابتة التي لا تكاد تتغير على اختلاف العصور والبيئات وعلى تباين الأديان والألوان، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الملاحم تتشابه فى بعض الأنماط والنماذج والصور، ولعل هذا هو السبب أيضاً الذى جعل الباحثين يختلفون فى البحث عن السبب . وأيا كان الباعث على التماثل أو التشابه فان سيرة عنترة ، كغيرها من الملاحم ، تنأى بجانبها عن التخصيص ويعينها ذلك على إبراز الفضيلة العامة من خلال الشخصية أو الموقف . . الشجاعة والحب والإيثار والتضحية والوفاء ، كل أولئك فضائل ثابتة تخرج فى يسر من الإطار القومى أو الحضارى الإسلامى إلى الدائرة الإنسانية الشاملة ، ومن هنا كانت المرحلة الإنسانية فى سيرة عنترة لا تقوم برأسها كجزء يمكن إبرازه أو فصله ولكنها تتداخل فى أكثر تضاعيف هذه الملحمة الشعبية . ونحن الآن ، إذا تركنا جانباً ، المعارف الخاصة بالبيئة الجاهلية وبالقرون الأولى من الإسلام والمجتمع الصليبى فاننا نواجه دائماً المثل الإنسانية العليا مشخصة ومجسمة وواضحة من خلال الوصف ، والتصوير ومن الإلحاح على نتائج الصراع ، وإن كان مرتكزاً على الحرب فى جملته وثمت حوادث كثيرة تؤثر السلام على الحرب فى ملحمة تقوم دعامتها الأولى على المبارزة والالتحام . وتبلغ الملحمة ، فى هـــذه الناحية أوجها الفنى عند ختامها الذى يلخص نبل مقصدها فلقد كانت نهاية البطل على يد غريمه الأسد الرهيص ، وكما بالغت السيرة فى قوة عنترة وشجاعته وبصره بفنون القتال بالغت كذلك فى تصوير غريمه حقداً ولدداً فى الخصومة جعلاه لا يستطيع أن ينام عن ثأره من عنترة . وامتزج الفن القصصى بما ينبغى للصراع من تناقض بين الخصمين فالبطل عنتره متسامح عن إعتزاز بشهامته وكثيراً ما غلب خصمه الأسد الرهيص على أمره ، وأوقعه فى أسره ، ثم لا يلبث أن يطلق سراحه . ولكن هذا الخصم يعيش بضغنه ويعود إلى التربص بعنترة ، ولقد أفقده بطل الملحمة بصره آخر الأمر ، ولكن وزر بن جابر — وهو اسمه — ظل يتدرب على الرغم من كف البصر ، حتى استطاع أن يرمى الطير والغزال بقوسه مستعيناً على ذلك بالقدرة على تتبع أصواتها . وهى صورة فذَّة بين ملاحم الشعوب . ونجح فى أن يصيب عنترة بأحد سهامه ومات وهو يتصور أنه أخطأ الهدف . وكانت نهاية البطل الملحمى الكبير أبى الفوارس عنترة مناسبة لشخصيته كنموذج رائع للفارس البطل . . لقد ظل على صهوة جواده الأبجر طوداً يتحاماه الأعداء بعد أن فارق الحياة .

قال الراوى : « . . . وسارت بنو عبس وتقدمت بين يديه وهو ينظر إلى عبلة والدموع تتحادر من عينيه فلما غابت عنه وهو متكئ على رمحه بيديه فشهق شهقة ونفخ نفخة فارقت روحه جسده والجواد واقف تحته لم يتحرك من مكانه لأن هذه كانت عادته منذ تربيته ونشأته وكان عنترة مدة حياته إذا نام ينام على ظهر حصانه ... هذا وهؤلاء العربان يظنون أن عنترة على قيد الحياة ولم يعلموا أنه شرب شراب الوفاة إلا أنه واقف يطلب منهم الحرب والقتال فقالوا لبعضهم يا ويلكم ارجعوا على أعقابكم من قبل أن تعدموا نفوسكم ! ! ! »(1).

وارتفع عنترة بن شداد العبسى إلى مقام أسمى من مقامات آخرين فى نظر القصاص الشعبى . ونحن نعلم أن العربى يفاخر بنسبه الذى يقص أثر آبائه ، وهو مع ذلك يفاخر بخؤولته . ولقد كان عنترة عديم الخال لأنه ولد من أمة حبشية ، بيد أن السيرة الشعبية لم تزل تسير ببطلها فى إفريقيا حتى يبلغ قلبها ثم يتجه إلى بلاد الحبشة ، لا يتوقف عن رحله ولا يحجم عن وقعة وهناك تستبين له الحقيقة — فى تصور القصاص الشعبى — وهى أن زبيبة أم عنترة من نسل ملكى . . إنها ابنة

(1) سيرة عنترة — طبعة القاهرة ج ٨ ص ١٨٢ — ١٨٣

النجاشى ملك الحبشة ! ! ! وتبعاً لذلك فقد كان من حقه أن يفاخر بشرف الانتساب إلى عبس وشرف الانتساب إلى ملوك الحبشة فى وقت واحد وفى هـذا تعليل فنى بررت به الملحمة تفوقه فى قوة البدن وقوة النفس، كما بررت ترفعه عن الصغائر وعفته عند المغنم .

وإذا كان عنترة العبسى العربى قد تفوق فى الفروسية فقد جعلته السيرة يتفوق على الشعراء . وما أروع الحيلة التى اصطنعتها تصويراً لإمارته على شعراء العربية ، لقد استغلت ما أثر عن أبى الفوارس باعتباره واحداً من فحول الشعراء فى الجاهلية ومن أصحاب المعلقات ، ولذلك ألحت السيرة على فضيلة الشعر إلحاحها على فضيلة الفروسية ، وجمعت بين أصحاب المعلقات بطريقة فنية لا تقيم وزناً للرواية الأدبيةالمحققة ، وعقدت مباراة شعرية لا تختلف عن مبارزة الفرسان ، وحكمت آخر الأمر بالتفوق والسبق لمعلقة عنترة . . وسايرت منهجها حين جعلته من أعلم الناس بفقه اللغة العربية وبأيام العرب وأنسابهم ، ومن ثم أصبحت لسيرة عنترة وظيفة تعليمية إلى جانب وظيفتها الملحمية . ولا يغفل القصاص الشعبى عن العظة التى لا بد أن تستخلص من كل موقف ومن كل شخصية . والسيرة بهذه المثابة كتاب جامع للمعارف وللعظات مع الحرص على طابعها الملحمى وبنائها الفنى .

وتكتنف السيرة عروق أسطورية لا تثمرها المبالغة فى الخيال فحسب ، وإنما تجيئها من شوائب قديمة ومن تصورات شعبية ، وهذه العروق الأسطورية تباين المبالغة فى القدرة عند الأبطال والشخوص مبالغة تتجاوز بها حدود الممكن والمعقول ذلك لأنها مجموعة من الأفكار والتخيلات ومن التفسيرات غير المعقولة لبعض الأعمال والظواهر ، وهناك شواهد كثيرة عن طول الحياة بحيث يعمر بعض الناس القرون ذوات العدد ، وعن الفأل والطيرة والحسد وعن أرض العفاريت وكهف الساحرات اللاتى يأتين فيه بالعجب العجاب . . وليس من شك فى أن تلك الرواسب الأسطورية سمة من سمات الأدب الشعبى وهى تضاف إلى ما فى سيرة عنترة وغيرها من القدرة على قتل الأسود ومن النسوة المسترجلات ،ومن التشويق بتتابع الأحداث لا باخفاء النتيجة التى يفصح عنها التنبؤ بوساطة النجوم أو الرمال أو الأحلام ، وما إلى هذا السبيل . وكما بدأت السيرة تمهد لظهور الإسلام بقصة إبراهيم عليه السلام فقد ختمت بدخول بنى عبس فى زمرة المسلمين .

وهكذا انتهت الملحمة الشعبية التى تعد من روائع الملاحم العالمية وإن كان الراوى الشعبى يختم كلامه دائماً باعتبارها سجل معارف وأخبار ومواعظ فيقول : « . . . قال الراوى لهذه الروايات والفنون فقد رأيت من سير الأولين وأخبار المتقدمين وما نقل عن القرون الماضية ما فيه عبر لأولى الألباب وحكمة بالغة يدرى المتدبر بها عين الصواب » .